

الأصول الوسيطة لقرية مورسكية

منزل بوزلفة نموذجاً

لطفی بن میلاد

باحث في تاريخ العلاقات المتوسطية

بجامعة منوبة

تقديم:

إن البحث التاريخي الجاد هو مجهود جبار قد لا تستوفيه مجهودات شخص واحد. أو حتى مجموعة من الأشخاص. بل هو بحث متواصل في الوثائق والمصادر مختلفها وواحد، ومقارنتها ببعضها، كما أن دراسة التاريخ ليست للاحتفاء بالأجداد وذكر شخصيات دون غيرها في إطار «اذكروا موتاكم بخير».

وقد أكدنا في نص سابق صعوبة الإقرار بحقائق في تاريخ مدينة منزل بوزلفي في مساءلات طرحناها⁽¹⁾، وسنحاول اليوم الكشف عن جوانب من تاريخ هذه المدينة في علاقتها بتاريخ استقرار المورسكيين بالجهة⁽²⁾.

I- العصر الإسلامي الطويل: 900 سنة قبل مجيء المورسكيين 709/91-1609/1018:

لقد تم فتح جزيرة (شريك) أو (أبي شريك) في نهاية القرن 7/1 وفي الاسم إشارة إلى فاتحها وهو شريك العبسي أول عامل للولاة على الجهة أوائل القرن VII/II وتحمل عديد الجهات والعائلات اليوم، أصولاً تدلّ على استقرار مبكر لقبائل عربية (أغلبها يمني) مثل بني

⁽¹⁾ بن ميلاد (لطفی) «مساءلات حول تاريخ التوطن البشري لمدينة بوزلفي» مجلة أريج البرتقال. عدد 2008/11/7 صص 11-17.

⁽²⁾ انظر دراستنا:

«La Communauté Morisque de Menzel Bouzalfa : (11/17^s - 13/19^s), 4^{ème} centenaire de l'expulsion Morisque, Fondation Temimi. Tunis 2009 ».

تيم، بنو حبيب، بنو فهر، وعائلات أخرى مثل أولاد الفهم (الفهمين) وبني سويد، رغم أننا لا نستطيع تأريخ قدومها واستقرارها هناك⁽¹⁾.

لا نتحدث المصادر الوسيطة باختلاف أنواعها (طبقات، أخبار، جغرافيا) إلا عن (منزل باشو) بإطناب. وقد يكون (باشو) اسماً لشخص مهم، لكن لا نعرف ما أهمية دوره في الاستقرار العربي الإسلامي بل لا يمكن أن نؤكد نسبته العربية كما لا يمكن أن نعرف أن هذه المدينة اندثرت بحكم الزحف الهلالي ثم نتيجة للمعارك التي شنها بنو غانية (أحد فلول المرابطين) ضد الحكم الموحي أواخر القرن 6هـ/12م⁽²⁾.

لكن لا بد من التأكيد أن المنزل هو شكل من أشكال الملكية العقارية التي تشكلت إثر نهاية الفتح العربي⁽³⁾. حيث قام الوالي العباسي يزيد بن حاتم المهلي (155-778/762/171) بحل عناصر الجند الأموي بإفريقية وعمل على استقرارهم في شكل جماعات (حسب الانتماءات القبلية) ومن الواضح أن هذا الصنف من الملكية العقارية هو من نوع من الملكيات الصغيرة والمتوسطة⁽⁴⁾، إذا ما استثنينا منزل باشو التي أطنبت المصادر في وصفها حيث عظمتم إلى أن تحولت إلى عاصمة الجزيرة القبلية.

لا نعرف شيئاً عن المنزل وعن القبيلة أو الجماعة التي ارتبطت بها، ومن الواضح أنها ليست بالوزن الديمغرافي أو الثقل السياسي الذي يمكن أن يستدعي انتباه المصادر، وما نعرفه

⁽¹⁾ راجع بالخصوص: بحرية (سلوى) اليمانيون في المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الثاني هجري. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. تونس 2000 (مرفوعة).

⁽²⁾ التجاني. الرحلة. الدار العربية للكتاب. تونس - طرابلس. ط 1. 1981. ص 11.

⁽³⁾ الباهي (أحمد) سوسة والساحل في العهد الوسيط: محاولة في الجغرافيا التاريخية. مركز النشر الجامعي. ط 1. تونس. 2004. ص 336.

⁽⁴⁾ جعيط (هشام). تأسيس الغرب الإسلامي: القرن الأول والثاني هجري/ السابع والثامن ميلادي. دار الطليعة. ط 1. بيروت 2004. ص 152.

- راجع في هذا الخصوص التحليل المعمق للأستاذ عمر بن حمادي (بعض المعرجات الهامة في أوضاع الملكيات الزراعية في إفريقية في فترة تاريخها الوسيط) دراسات تاريخية س 13 عدد 43 - 44 - دمشق 12 1992. ص. 89

أن أصحاب هذه الملكيات الذين لم يستفيدوا من العهد الأغربي حيث حكمت أرستقراطية عربية البلاد، فالقادة كانت لهم علاقة متوترة دائما مع النظام بسبب الجباية والضرائب على الأرجح، ويبقى الأمر كذلك حتى الحديث عن تدمير بني غانية لمنزل باشو أواخر القرن XII/VI (1183/579). وفيما يخص المنزل في هذه الفترة نلفت الانتباه إلى نصين:

- النص الأول بتاريخ 1164/559 هو نقيشة بناء الجامع الموحدى⁽¹⁾.
 - النص الثاني متأخر جدا للكناني (1875/1292) والذي ينقل عن الشيخ محمد الإمام المنزلي قوله أن جده الأعلى قدم من مصر نحو 1194/591 فوجد المدينة قد فرغ أهلها من بنائها⁽²⁾.
- لا بد من الإشارة في هذا الصدد، أننا أمام تقارب زمني بين الفترتين المذكورتين في النصين (30 سنة)، عندما نعرف أن الموحدين جددوا الجوامع التي وجدت من قبل، كما أن حديث المصادر عن المسح العقاري يؤكد بأن هؤلاء لم يهملوا هذه المنطقة، لكن النص الثاني لا يجد مساندا له في النصوص المعاصرة (أقدم نص هو التجاني (1321/721)، لكنه لا يخلو من إشارات هامة، فالبلدة يمكن أن تكون دمرت إثر معارك بنو غانية وقرقوش الغزي ضد الموحدين، لكن لم تتجاوز طابعا قرويا، وهل يكون الأصل المصري مرتبطا بقدم الجيش الأرمي إلى الجهة؟

إن الدراسات التي تناولت مسألة التحضر بالجهة في العصر الوسيط المتأخر تنفي تماما وجود مدينة فيها مثل الدكتور محمد حسن الذي يتحدث عن موجة اندثار للقرى بها ناتجة عن تسرب القبائل البدوية التي مازالت بعضها تحافظ على نفس الاسم (بني كعب، بن سليم

⁽¹⁾ نشر الأستاذ عبد الوهاب الشيخ هذه الوثيقة في مقال بعنوان «مبحث حول تأسيس منزل بوزلفة» مجلة أريج البرتقال عدد 4-3-2007 ص 11 ونحن نشكره على جهده. لكننا لا نشاطره ما ذهب إليه من استنتاجات.

⁽²⁾ الكناني (محمد الصالح). تكملة الصلحاء والأعيان. نشر المكتبة العتيقة. تونس 1971 ص.

، بني وائل)، بينما يشير إلى وجود منازل لبني دلاج غير بعيد عن المنطقة⁽¹⁾.

إن النقص الكبير في النصوص وقد يكون مرده الفراغ الحضري الذي عرفته الجهة بين بداية الفترة الموحدية (أواخر القرن VI / XII) والفترة العثمانية (بداية القرن XVII/1183) يجعلنا نمر مباشرة إلى مرحلة المورسكيين.

II- المورسكيون والاستقرار بجهة منزل بوزلفي: قضية تأسيس القرية 1609/1018 - 1769/1183:

لا بدّ من التأكيد أولاً على أن سنة 1609/1018 هي سنة إعلان الملك الإسباني فليب III طرد المورسكيين (الأندلسيون الذين بقوا في إسبانيا المسيحية) من 1492/897 - 1609/1018، وليست سنة تأسيس القرى (المورسكية) كما يرد في ذهنية أهلها، حيث ارتبطت هذه السنة بأسطورة التأسيس التي مازالت تحوم حولها عديد الأسئلة دون إجابة مؤكدة⁽²⁾.

نقارن في هذا الصدد، بين المصادر المكتوبة التي يمثل ابن أبي دينار (1681/1092)⁽³⁾ والوزير السراج (1735/1148)⁽⁴⁾ أقدمها، وبين وثائق أرشيف الدولة التونسية (1769/1121)⁽⁵⁾. فابن أبي دينار يذكر استقرار الأندلسيين بحوض قمرالية وهو الجهة التي تركز فيها الاستيطان الروماني مبكراً (قمرالية). وأخرى استقرت بها القبائل اليمانية (بلي، الأخوين) خلال القرن 8/2، بينما أسس الأندلسيون المورسكيون قرى

⁽¹⁾ حسن (محمد). المدينة والبادية في العهد الحفصي. ط1. مركز النشر الجامعي. تونس 1999. ص261.

⁽²⁾ Raymond (André) Tunis sous les Mouradites. La ville et ses habitants au XVII^e siècle, Ceres, 2006 : Chap 3 Les Andalous p 73.

⁽³⁾ ابن أبي دينار. المؤنس. دار الميسرة. بيروت. دون تاريخ. ص228

⁽⁴⁾ السراج (الوزير). الحلل السندسية في الأخبار التونسية. تحقيق محمد الحبيب الهيلة. الدار التونسية للنشر. 1970. ج1. ص531.

⁽⁵⁾ السعداوي (إبراهيم). عائلة بن عياد: مسار عائلة مخزنية 1710 - 1837. أطروحة مرقونة لنيل الدكتوراه في التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. 2000. ص290.

جديدة (الجديدة، نيانو، تركي) وجدّوا رباط أبي سليمان، هذه المعلومات كرّرها الوزير السراج مع التركيز على فضائل بلدة سليمان في أوائل القرن⁽¹⁾ 17/11.

في هذا الصدد لا نجد أي ذكر لبلدة «المنزل» (أي منزل بوزلفي) باستثناء ما يذكره المؤرخ التونسي د. محمد الهادي الشريف أنها كانت مجتمعا يتميز بحالة شبه قروية⁽²⁾، هذا يؤكد أن بلدة «المنزل» لم تتحول إلى قرية، حتى نهاية العهد الحسيني الأول. أيضا ما يؤكد هذا، إشارة تشير إلى (بليدات الأندلس) (نيانو، الجديدة، تركي، المنزل) وهو لقب يطلق أساسا على التجمعات الريفية للمورسكيين، المحيطة بالقرى التي أنشأها هؤلاء (تجمعات حضرية)، وهو ما يرجح استقرار فئات من المزارعين المورسكيين في الجهات المجاورة «بالمنزل» لممارسة زراعة الزياتين والأشجار المثمرة، على أنها حافظت على نفس الوضعية إلى بدايات القرن XIX/XIII. إن نفس الوثائق، تحيل على أن تلك الأراضي كانت تعرف ظاهرة الملاكين المتغيين، يعني تواجدهم بمدينة تونس (فئات ثرية) مقابل وجود وكلاء⁽³⁾ لهم على الأرض.

ما تكشف عنه معطيات أرشيف الدولة في أواخر القرن (18م) هو أن الحاج رمضان الصندلي اشترى «اللزمة» (الضريبة التي تطالب بها الدولة رعاياها)، وهو ما يدل على وجود فئات ثرية من هؤلاء. كما أنه مع مطلع القرن XIX نجد عائلات أخرى مثل (الإمام، الشيخ، بن إسماعيل، النيو، مورو)، وأسماء هذه العائلات لا يعني أنها هي فقط الموجودة، بل هذه العائلات هي من العائلات الثرية القادرة على دفع ضريبة (الإعانة) سنة

⁽¹⁾ السراج (الوزير). الحلل السندسية. (الجزء الثاني أساسا).

⁽²⁾ Chérif (Mohamed Hédi). Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn bin Ali. Tl. Publication de la faculté des sciences humaines et sociales de Tunis. 1984. P 348.

⁽³⁾ السعداوي (إبراهيم). عائلة بن عياد. مرجع سبق ذكره ص 291.

1804/1219⁽¹⁾. وهذا هو ما يدفعنا إلى دراسة النسيج الاجتماعي المورسكي لقرية «المنزل».

III- ملامح ومعالم النسيج الاجتماعي المورسكي لمدينة منزل بوزلفي:

إننا في هذا الصدد نحاول تصنيف هذه العائلات ثم نقوم بمحاولات فهم (تاريخية) استقرارها بالقرية، فهناك عائلات حافظت على الانتساب إلى الأندلس وجهاتها (الأندلسي، الباجي، الجزيري)، وهناك عائلات أندلسية «العراقية»، (ابن الشيخ، ابن الحاج) وجدت منذ العهد الحفصي⁽²⁾. بينما نجد عائلات حافظت على لقبها الإسباني، حيث يذكر الرحالة الإسباني خيميناث أنه في سليمان مثلاً مازال العديد يتكلمون الإسبانية حتى سنة 1725/1138. ومن هذه العائلات (دباش، مورو، مورية، ألبو، طنتور، الكبي «القي»، دنفاس) وعائلات أخرى تحمل رتبا دينية وعلمية (الشيخ، المؤدب، الإمام، الطبيب) وأخرى ذات المهن الحضرية (قلالة، العطار، الحشايشي، النجار) بينما تنسب الأخرى إلى محطات الأولى (البنزقي) ويحوم السؤال حول عائلات (عنية، الحصائري).

إن تصنيف هذه العائلات يؤكد على وجود موجات متعددة وليست موجة واحدة للاستقرار (المورسكي) بالجهة، فمن الواضح أن الفترة الممتدة بين مطلع القرن 17/11 (1610/1019 وما بعدها) إلى أواخر القرن 18/12 (1769/1183)، تتميز باستقرار نوعية من المزارعين أو الملاكين المستقرين في المدن المجاورة (العاصمة، سليمان، قمرالية) والأخيرين هم من الفئات الثرية، لكن من الواضح أنهم لا يتعاطون مباشرة الزراعة، فالعائلات التي تحمل رتبا علمية ودينية أو مهنا حضرية، إضافة إلى العائلات الأندلسية، يرجح أن يكون انتقالها إلى الجهة مرتبطا بتحول البلدة إلى مجتمع قروي شبه حضري، أو مجتمع حضري. وهذا لا يمكن تأكيده قبل نهاية القرن 18/12، إذ لا بد في هذا الإطار من

⁽¹⁾ الأرشيف الوطني للدولة التونسية دفتر 747.

⁽²⁾ حسن (محمد). المدينة والبادية في العهد الحفصي. مرجع سبق ذكره. ج 1 ص 150 و ج 2 ص 57.

فهم أن هذه العائلات كانت موجودة في قرى أندلسية، حيث حافظت على نرجسيتها الحضارية في شكل تقوقع اجتماعي، إذ نجد ألقابا مشابهة في مدن أخرى مثل ابن الشيخ (مجاز الباب) المؤدب (قلعة الأندلس، طبرية)، الطبيب، الباجي ابن الحاج، الشريف الأندلسي (مجاز الباب) مورو، المؤدب (تستور)، الإمام الأندلسي (العالية)، بينما ارتبطت بعض العائلات بمهنها كأن يوجد مثلا الحشايشي، الصندلي، أو قلالة (نابل) وأخذت أخرى نسبا ثانيا يربط بمحطات نزولها (البنزرتي)⁽¹⁾.

إن هذا التشابه في الألقاب يطرح إلى حد كبير السؤال حول أسباب الانتقال إلى جهات الوطن القبلي، فقد كانت الجالية الأندلسية تنفر دائما من ضغوطات الحكام خاصة زمن الفتن (أواخر سبعينات القرن XVII/XI وأواسط القرن XVIII/XII)، بينما عانى آخرون من الاندماج في مجتمعات محلية نتيجة رفض المحليين لهم مثل رياح وبحرين (مجاز الباب)⁽²⁾، واصطدم آخرون بفئات ذات طابع بدوي صدامي (الوسالتيه) الذين شتتهم علي باي الثاني سنة 1762/1176 (تستور)⁽³⁾. كما شكل تأسيس الزاوية القادرية بالقرية نحو 1813/1229. نقطة استقطاب عديد العائلات المتدينة أو ذات الورع الصوفي خاصة بعد تشجيع حمودة باشا لها.

لا يظهر الحضور المورسكي في شبكة العائلات التي مازالت موجودة إلى اليوم بل في

⁽¹⁾ راجع قائمة العائلات المورسكية في: الحمروني (أحمد). المورسكيون الأندلسيون في تونس: دراسة وبيليوغرافيا. مديا كوم. ط1. تونس 1998 ص51. 53.

⁽²⁾ Ben Tahar (Jamel). « Droit et conflit : le conflit entre les Andalous et les Baldya à Mjaz al Bâb au XVIII ème siècle » dans Villes et territoires au Maghreb : modes d'articulation et formes de representations, colloque de IRMC Tunis (9-1998).

⁽³⁾ السعداوي (إبراهيم). « غابة تستور ونواحيها في القرن XIX » المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 35 تونس 2007/12/11 ص155.

المشهد المعماري فمزال «الصباط» ماثلا في أكثر من حي بأقواسه المتعددة (صباط الغربي، صباط الجزيري، صباط سيدي عبد القادر)، وما زال بناؤه الفوقي الدائري بنوافذه ذات «الزركشة» الحلزونية والتي تطل على الخارج (الشارع)، كما أن بعض منازل «العائلات الموركسية» في المدينة العتيقة تحتوي على «وسط دار» في مشهد بديع، رغم تغير النسيج الحضري نحو التحديث. وتحتاج هذه المشاهد المعمارية إلى دراسة معمقة تكشف عن خفاياها وخصائصها.

استنتاجات:

استقر المورسكيون على أنقاض بلدات قديمة دمرت بين قدوم الهلاليين و قدوم الحفصيين فجددوها، وأسسوا بلدات جديدة في المنطقة الرومانية القديمة، محافظين بذلك على طابعهم الحضاري الأندلسي الذي أظهر فيه العرب ولعا كبيرا بالزراعة، ومن هذه البلدات «المنزل» (أعيد بناء جامعها في العهد الموحد) التي استعادت تكوّنها مع استقرار هؤلاء بها لتتحوّل إلى قرية «موركسية» حتى مطلع القرن XIX/XIII، حملت ابتداء من الثلث الأول منه، اسم عائلة قد تكون موركسية هي «بولفة» وهو اسم محرف لعائلة وجدت في مجاز الباب (بولفة)⁽¹⁾.

ومع توافد جاليات أخرى تقلصت نسبة المورسكيين أمام الوافدين الجدد من داخل البلاد (وسالتية، أولاد سعيد، جلاص) وخارجها (طرابلسية، مغاربة، الجزائريون) وأقليات (يهود). كما أصبحت تابعة إداريا لقيادة سليمان حتى سنة 1881/1299.⁽²⁾

⁽¹⁾ الحمروني (أحمد). المورسكيون. مرجع سبق ذكره ص 55 (لم يكشف الأستاذ الحمروني عن مصدره حول هذه المعلومة وهو ما يدعونا إلى مزيد البحث لتأكيدهما).

⁽²⁾ حول منزل بولفة قبيل الاستعمار: النفاقي (الطيب). الوطن القبلي في عهد محمد الصادق باي 1859-1882. رسالة مرقونة لنيل شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ. إشراف الدكتور الهادي التيمومي. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس 1993.